« مصر عتيقة »

فيلم تسجيلى ملون فى نصف ساعة
(ناطق باللغات العربية والانجليزية والفرنسية)

اخـــــــراج : عبد القادر التلمسانى
مدير التصوير : حســن التلمســانــى
سيناريــــو : مختــار السويفــى
مونتـــــاج : حســين عفيفــى
تعليــــــق : صــــلاح حافـــظ
موسيقـــــى : عبد العظيم عويضة
وعلاء الدين مصطفى
مهندس الصوت : جميــل عــزيــز
انتاج سنة ١٩٨٦

الموضــوع :

تتجسد فلسفة الشعب المصرى وسماحته فى حى « مصر عتيقة » بالقاهرة.

إستوعب هذا الحى وثنية الفراعنة، ووثنية الرومان، وفتح أهله أحضانهم للمسيحية، ثم للإسلام .. وتوارث أهله التسامح الروحى، والمودة، والتسامى فوق حواجز اللون والدين والعنصر.

والحى الآن كنز لتراث الأديان جميعا، وثروته من هذا التراث تبهر الزائرين من مختلف أنحاء العالم.

لكن الأهم هو أنه ما يزال يعيش نفس التراث، ويترجم فلسفة مصر إلى واقع يومى، تتعانق فيه العقائد على الأرض، وتتعانق تراتيلها كل يوم فى السماء.

التعليـــق :

● على الضفة الغربية للنيل جنوب القاهرة ، أقدم عاصمة لمصر الموحدة . كان اسمها منف ، واسمها الآن «ميت رهينة» وعمرها أكثر من خمسة آلاف سنة .

● وعلى الضفة المواجهة مباشرة ، ينهض حى لا يقل قدما عن منف ، حى عتيق ، يسميه أهله : «مصر عتيقة» ، والبعض يسمونه : «مصر القديمة» .

● هذا الحى تعايشت فيه كل الأديان التى آمن بها المصريون وما تزال تتعايش .

● ولم يكن صدفة أن يقيم الرومان فى هذا الحى بالذات أهم حصونهم فى مصر بعد أن احتلوها عام ٣١ قبل الميلاد : «حصن بابيلون» .

لم يبق الآن من حصن بابيلون غير بضعة سراديب ، ومخزن غلال ، وطاحونة .. والباب الوحيد الباقى من أطلال الحصن هو الذى دخل منه جيش عمرو بن العاص ، حاملا رسالة الإسلام .. منذ أربعة عشر قرنا .

ترك العرب الحصن .. بعد غزوه .. للأقباط الذين كانوا يعملون فيه ..

● فأقاموا فوق جزء منه كنيسة معلقة .

ثم انتشروا فى مساحته التى تبلغ ستين فدانا ، يبنون فيها بيوتا وكنائس أخرى وأديرة .

● وأصبح الموقع الذى كان ذات يوم مقر عبادات فرعونية ، ثم قاعدة للاحتلال الرومانى ، مدينة مسيحية خالصة .

● أما العرب المنتصرون ، فأقاموا لأنفسهم مدينة مجاورة على أرض معسكرهم وأطلقوا عليها اسم «الفسطاط» .

● وفيها بنى عمرو مسجده للمسلمين .

● لكن المدينة .. وهى فى قمة ازدهارها ، شب فيها حريق أتى عليها ولم يبق فيها الآن غير جزء من السور، وبقايا الأساسات والبلاط وآثار طاحونة وبضع آبار .

● وأعلى مايتردد فى الفسطاط ، الآن ، أصوات المعاول تحفر الأرض ، ومناقشات المنقبين عن الآثار من علماء مصر وأوروبا وأمريكا بل واليابان أيضاً .

● ولا يضيع جهد المنقبين هباء .. فبين وقت وآخر تكافئهم أطلال الفسطاط بتحفة من كنزها المدفون .. تفتح شهيتهم لمواصلة التنقيب عن تحف أخرى .

● الشىء الذى لم يحترق مع مدينة الفسطاط ، هو صناعة الفخار فيها ، فالعائلات التى توارثت هذه الصناعة ماتزال تشكل الأوانى وتصفها وتحرقها وتزود بها الأسواق المصرية .

وتواصل فنون الخزف إبداعها فى العصر الحديث على أيدى فنانين يقيمون فى نفس المنطقة، أشهرهم سعيد الصدر.. شيخ فنون الخزف وأستاذ مئات من التلامذة الموهوبين.

لم يحترق مع الفسطاط أيضاً مسجد عمرو، أول مسجد قام فى مصر، وأفريقيا، ولكن صورته الآن تختلف كثيراً عما كان، لأن حكام مصر وفنانيها لا يكفون عن تجميله، وتوسيعه جيلاً بعد جيل.

• فى أول صلاة أقيمت فى هذا المسجد، خطب عمرو بن العاص، فقال للمسلمين: «احفظوا عهد جيرانكم الأقباط، فقد قال لى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله سيفتح عليكم مصر بعدى، فاحفظوا عهد أقباطها، فهم أهلكم، وهم فى حمايتكم».

كان الجامع فى صدر الإسلام مسجدا ومدرسة وبرلمانا، وقاعة بحث ودراسة.. وما يزال يؤدى هذه الأدوار كلها جامع عمرو..

.. وفيه يبدأ الدرس الدينى يوميا بعد صلاة المغرب..

• أما فصول التعليم، وندوات البحث والدراسة فتبدأ بعد صلاة العشاء.

• على مسافة قريبة من جامع عمرو، يتربع المتحف القبطى على جزء من حصن بابيلون الرومانى، وهذا المتحف تحفة فى حد ذاته، فمعظم شرفاته ونوافذه وسقوفه جلبها الأقباط من قصورهم القديمة الموروثة.

• فنقل الأقباط إلى المتحف كتلا حجرية كاملة، منها شرقية باويط الشهيرة التى تتزين برسم المسيح والعذراء والحواريين.. من القرن السادس الميلادى.

• وتبرز أساطير اليونان، مثل ليديا والبجعة فى تراث العصر القبطى الأول.

• وترتد بعض شواهد القبور إلى القرن الثالث الميلادى ويتجاور الصليب وعلامة عنخ الفرعونية.

ويعود التراث اليونانى يطل برأسه فى قوقعة أفروديت.. إلهة الحب والجمال.. من القرن الرابع.

• ونقل الأقباط إلى المتحف أعمدة كاملة من الأديرة المهجورة، مثل دير الأنبا أرميا فى سقارة.

ونقلوا المنبر الحجرى أيضاً.

• ويذخر الجناح الجديد بلوحات المصيص التى برع فيها الأقباط، ومن أجملها لوحة آدام وحواء، قبل الخطيئة، وبعدها.

● أما الذى يجسد حناً منطق مصر عتيقة .. فهو المخطوطات .. جاء العرب ، فاستضافت الأناجيل والكراسات القبطية لغتهم وتجاورت اللغتان على الصفحات ، كما تجاور أهلهما فى الشارع والبيت والحقل والوطن .

● وفى الجناح القديم قاعة مستقلة لصناديق الأناجيل ، وكلها من الفضة والأحجار الكريمة ، وفيها أيضاً تتعانق الزخارف القبطية والعربية .

● ويجسد نفس المنطق رسوم النسيج المحفوظة فى المتحف .. فهى قبطية بالميلاد ولكن ذوقها وعاء للفن الفرعونى ، واليونانى والرومانى فى سبيكة مصرية خالصة .

● حارب المسيحيون الأوائل فن الرسم خوفا من الوثنية ، لكن المصريين تمردوا على هذا التحريم ، وتساهلت الكنيسة فى النهاية فأصبحت الأيقونات بعض ملامح المسيحية ، ومرجعا زاخرا للقصص الانجيلى .

● ويتجسد منطق «مصر عتيقة» أيضاً فى المشغولات المعدنية حيث تتجاور علامة عنخ الفرعونية مع الصلبان المسيحية .

ويتعانق الصليب والهلال بعد الفتح الإسلامى ، وتشهد العناق تيجان البطاركة وسيوف الرومان والعرب .

وفى تحف العاج والعظم أيضاً ، تلتحم رموز المسيحية برموز اليونان وأساطير أثينا بقصص الإنجيل .

● يحتاج الزائر بعد الجولة فى الجناح الجديد إلى لحظات يلتقط فيها أنفاسه ، ويتأمل ما سبق أن شاهده ، قبل أن ينتقل إلى الجناح القديم .

● فى هذا الجناح القديم معظم ثروة المتحف القبطى من المشغولات الخشبية .

● وينفرد الجناح بتحفة لم تتكرر: مذبح من خشب الصنوبر، تشكله أربع لوحات مختلفة ، تضم فى مجموعها المسيح والعذراء والحواريين والملائكة .

لا حد فى المتحف القبطى لثراء المشغولات الخشبية ، وتنوع خاماتها .. فالمصريون تعاملوا منذ فجر التاريخ مع أخشاب النخل ، والسنط ، والجميز، واستوردوا الأرز والعاج والأبنوس والصنوبر والجوز، وصاغوا منها جميعاً تحفاً باقية .

نقل المتحف شراعة الباب هذه من الكنيسة المعلقة ، وهى تصور دخول المسيح إلى مدينة القدس ، ولايكاد يصدق أحد أنها محفورة كلها على جذع شجرة جميز.

● يزخر الجناح القديم أيضاً بثروة من الفخار، لولا بصمات التاريخ لتصورناها بعض ما يصنع جيرانه الآن ، فى الفسطاط المعاصرة .

● وفوق هذا التاريخ كله، يطل من السقف العصر الحديث، فهو سقف يمثل ميناء استانبول.. خلعه أحد الاقباط من قصره، وأهداه إلى المتحف.

على أن المتحف القبطى لايمكنه أن ينافس كنائس «مصر عتيقة» التى تجاوره، فهذه الكنائس متاحف أقدم منه، صاغها التاريخ نفسه.

● وفى الكنيسة المعلقة، فوق الحصن، تشرح الزخارف ـــ دون قصد ـــ فلسفة «مصر عتيقة» فالزخارف التى تكسو الأبواب والقاعات والمنابر هى نفسها التى تكسو المساجد، والفنان المصرى هنا يعلن أنه هو نفسه الفنان المصرى هناك.

ويعود الفنان المصرى يؤكد نفس المعنى فى كنيسة صغيرة، تصل إليها من باب جانبى فى الكنيسة المعلقة، وتحمل اسم هيمايون الحبشى.

● هنا تستقر أقدم «شرقية» على الاطلاق.

● وهنا ثروة من الأيقونات أتاحت للمصرى الذى رسم رمسيس فى معاركه أن يرسم يوحنا يعمد المسيح، والذى صور كليوباترا أن يصور مريم المجدلية.

● ويواصل المصرى نفس الابداع فى كنيسة أبو سرجة المجاورة.

وفى مقدمة ما يبهر الناس فى كنيسة «أبو سرجة»، أيقوناتها.. لا تزيد مساحة إحداها على مساحة الكف، وفى كل منها يقول الفنان المصرى أن ما يبهرنا فى الكرنك ليس الضخامة والمساحات الكبيرة، وإنما الفن الأصيل، القادر على تخليد ملاحم كاملة فى شبر من الإبداع.

● وتنفرد كنيسة «أبى سرجة» بالكهف الشهير، الذى اختبأ فيه المسيح والعائلة المقدسة أيام الهروب إلى مصر من بطش الرومان فى فلسطين.

وتنفرد كنيسة «أبى سرجة» أيضاً بتحفة فنان مجهول مبدع، روى على شريط واحد من الخشب قصة المسيح كاملة.. من الميلاد إلى الصعود.

● وتحتضن «مصر عتيقة» معبدا يهوديا أيضاً، هو معبد بن عزرا وفيه تؤكد فلسفتها من جديد، فزخارفه من نفس طراز الأرابيسك المصرى، والكتابات العبرية تبدو جزءاً منه، ومتعانقة معه.

● لم تتعمد «مصر عتيقة» أن تكون هذه صورتها، لكن القدر اختارها مسرحاً للتحولات الدينية والاجتماعية فى مصر، فتوارث أهلها التسامح وسعة الأفق، والتنور الروحى، والمودة، وما تزال هذه ملامحها فى البيت والشارع والسوق، وفى قسمات الوجوه وصور التعامل ولغة الحوار.

● فى العالم الآن ما تزال حروب تنشب باسم الدين، ومذابح عنصرية، وصدام دموى بين العقائد، لكن مصر ما تزال وطن الأبيض والأسود، والمسيحى والمسلم، ورمزها الحى هو مصر عتيقة، حيث تتعانق العقائد على الأرض.. وتتعانق التراتيل فى السماء.

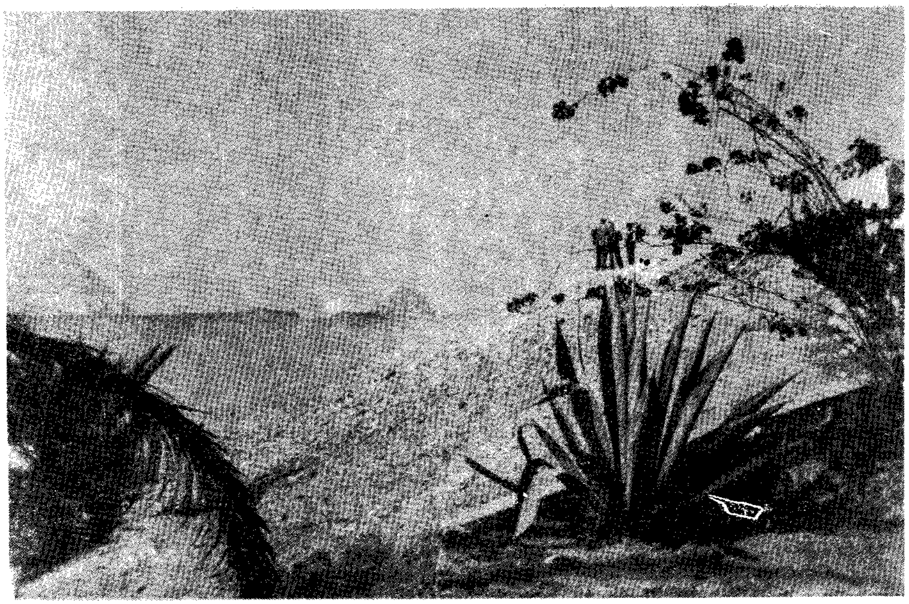

من فيلم مصر عتيقة

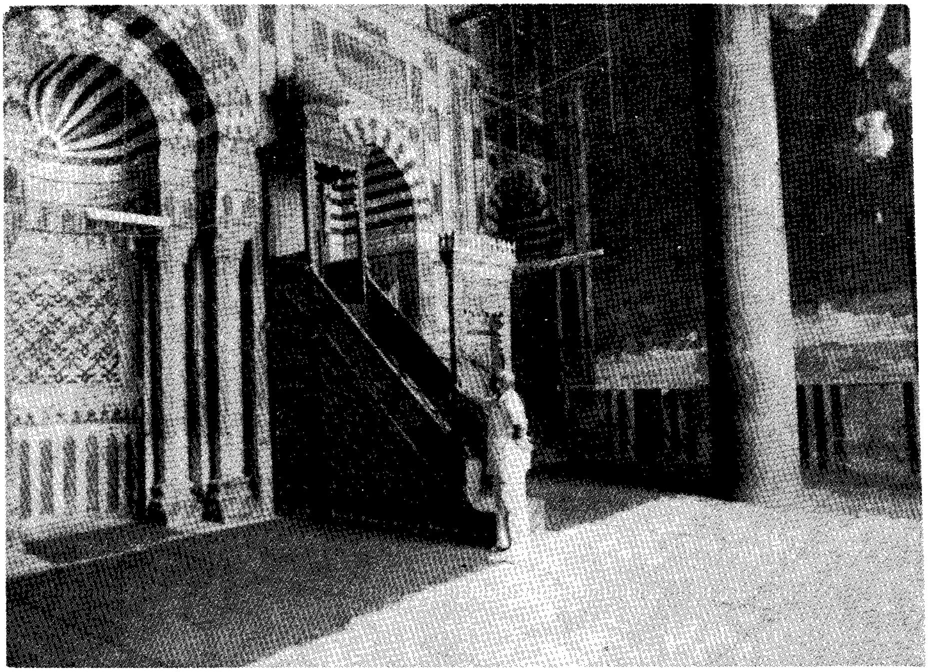

من فيلم قاهرة المماليك